مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 06 العدد: 01- (2022) ص 214- 223

الدرس اللغوي المغاربي القديم: إرهاصات النشأة ومسارات التطور

The ancient Maghribine linguistic: studies their earlier creation and reformations' factors

د. النذير ضبعي *
جامعة العربي بن مهيدي –أم البواقي- (الجزائر)
Nadirdobai80@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/10/23
تاريخ القبول:
2021/..../...

الكلمات المفتاحية:
- ✓ اللسانيات المغاربية
- ✓ الإرهاصات
- ✓ التطور

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى إبراز المنجز اللغوي المغاربي في بداياته، فالمتأمل في هذا الدرس يجد أنه لم يحظ إلا بالقليل من الدراسات، ولم ينل حقه، وبقي من المواضيع التي تحتاج إلى البحث والدراسة.

ومن المفيد أن نعلم أن الدرس اللغوي المغاربي في حاجة إلى بحث ودراسة دقيقة وتفصيلية؛ لأنه لا يزال حقلا معرفيا بكرا، ولم يحظ بما حظي به الدرسان اللغويان المشرقي والأندلسي، على الرغم من الجهود التي بذلها علماء القطر المغاربي في شتى المجالات خاصة في ميدان الدراسات اللغوية، وذلك منذ دخول أوائل الفاتحين.

Article info

Received
23/10/2021
Accepted
..../..../2021

Keywords:
- ✓ *Maghribine linguistic:*
- ✓ *creation:*
- ✓ *factors:*

Abstract **:**

This research aims to shed light en the beginning of the Maghribine linguistic studies who focuses on the mentioned studies above found that they have not been given a great importance and not well treated it is crucial to know that these studies requires a deeper study and detailed because untill now , the study remains a field that should be given more importance as wich has been given to the eastern and the Andalusian linguistic studies through the Maghribine linguistic studies was founded during the earlier.

* - المؤلف المرسل.

مقدمة:

كان الفتح الإسلامي لبلاد المغرب نقطة البداية لتاريخ زاخر بكل مظاهر الازدهار والرقي الحضاري في جميع مناحي الحياة؛ الاجتماعية والعلمية والثقافية واللغوية. فقد أقبل المغاربة على تعلم اللغة العربية وتعليمها، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بالتنقل إلى عدة بلدان لأخذ علوم اللغة من علمائها، حيث ارتحل الكثير من العلماء إلى المشرق والأندلس للتوسع في اللغة، فقد حصل بالمغاربة من إقبال على الدراسات النحوية واللغوية ما حصل ببلاد المشرق من إقبال الفرس وغير العرب على هذه الدراسات.

وقد كانت عجمة ألسنة المغاربة حافزا لهم على تعلم لغة القرآن الكريم، وفهمها، فسرعان ما انتشرت دور العلم، وتأسست كتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وتعليم القراءة والكتابة، وأصبحت الحلقات في المساجد تستقطب الكثير من المتعلمين، ثم توسعت هذه المعارف لتشمل علوم اللغة والآداب، وعلوم الحساب وغيرها من العلوم الأخرى. فكانت هذه بداية لتأسيس الدرس اللغوي المغاربي الذي أثرى الدرس اللغوي العربي، واستطاع علماؤه بلوغ مصاف الكبار.

والبحث مسوق للإجابة عن جملة من التساؤلات، أوجزها في الآتي:

- ما العوامل التي أسهمت في ظهور الدرس اللغوي المغاربي وتطوره؟
- من هم رواده، وما هي أهم أعمالهم؟
- ما أثر الدراسات اللغوية المغاربية في الدرس العربي؟

وقد ارتأيت أن أسوق البحث بالعنوان الآتي: " الدرس اللغوي المغاربي القديم: إرهاصات النشأة ومسارات التطور" الذي يسعي إلى بيان بدايات الدرس اللغوي المغاربي، وأهم العوامل المؤثرة في ازدهاره، مع ذكر علمائه في هذه المرحلة التأسيسية، وأثرهم في تطور الدرس اللغوي المغربي. بالاعتماد على المنهجين الوصفي والتاريخي.

1- مرحلة تأسيس الدرس اللغوي المغاربي وعوامل ازدهاره:

تعود بدايات الدرس اللغوي المغاربي إلى القرن الثاني للهجرة، وذلك مع احتكاك المغاربة بالعرب الفاتحين، فسرعان ما برزت منهم طبقة من العلماء الذين يقصدهم الطلبة لتعلم اللغة، فبعد أن "اتجه "المغاربة إلى المشرق موطن اللغة العربية للاستزادة من اللغة وتحصيل العلم بها لم يلبث أن ظهر منهم في القرن الثاني الهجري جماعات تكتب بالعربية، وتؤلف بها لا بل إن فريقا منهم أصبح ينافس أساطين علماء اللغة العربية في المشرق" (إبراهيم حركات، 1997-1998، ص446).

فقد اتسعت آفاق الدرس اللغوي في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، بعدما استأثر المغرب الأدنى بقصب السبق في هذا الحقل إلى غاية القرن الرابع الهجريّ؛ حيث كانت بداية الدرس اللغوي في المغرب الأوسط منذ القرن الثالث، وذلك عندما نزل أبو علي القالي "ت356هـ" ببجاية في طريقه إلى الأندلس، فقرأ عليه الطلبة كتابه "الأمالي" الذي دونه تلاميذه حفظا أو كتابة في دفترهم، إذ كان يملي "أحاديثه على تلاميذه، أو بمعنى آخر كان التلاميذ النابهون يدونون حفظا في ذاكرتهم أو كتابة في دفاترهم تلك الدروس" (أحمد شوقي، 1990، ص97).

وسرعان ما تبوأت بجاية مكانة مرموقة بين المعاقل العلمية في المغرب والمشرق، وأصبحت منارة إشعاع للعلم والمعرفة، واستهوت مشاهير العلماء والفقهاء واللغويين والأدباء من المشرق والأندلس، فقاموا بالرحلة إليها، ومنهم من أقام بها، واحتفظت بهذه المكانة حتى نهاية دولة بني حماد.

وكانت عناية سكان المغرب الأقصى باللغة العربية إبان حكم الإدريسيين، حيث اهتموا بها، وأولوها عناية خاصة، لتشهد في عصر المرابطين مرحلة النضج اللغوي، حيث أصبحت تعج باللغويين الذين اشتغلوا في التدريس والتأليف.

ولم تكن هذه الحركة اللغوية وليدة الصدفة بل كانت وليدة عوامل كثيرة، فكان لها أبعد الأثر في تغير مجرى النشاط الفكري في القطر كله، ولعل أهم هذه العوامل هو قيام الفاتحين بتحفيظ السكان، وتعليم اللغة العربية بمجرد دخولهم البلاد المغاربية، علما أن الأوائل من الفاتحين كانوا من الصحابة والتابعين، حيث كان أغلبهم من المدرسين والدارسين" (جميلة راجاح، 2015، ص93).

وقد تضافرت عوامل عديدة أدت إلى انتشار اللغة العربية في المغرب الكبير، وأسهمت في تعريب البلاد المغاربية واستفتحت أمامهم مغالق اللغة؛ وتعد المراكز الثقافية التي أنشأها الحكام بعد الفتح في عدة مدن مغربية من أهم العوامل التي لعبت دورا بارزا في نشر العلوم والمعرفة، وتطوير الدراسات اللغوية والأدبية. فبعد أن استتب الأمن، وعم الاستقرار شيدت المنشآت العمرانية، وتأسست مراكز حضارية وثقافية، التي كان لها أثر عظيم في رقي النشاط العلمي واللغوي، حيث قامت بالإقليم "مراكز حضارية هامة لا تقل مكانة ورقيا عن مراكز الشرق الإسلامي، مثل القيروان وفاس وتيهرت والمسيلة وأشير وقلعة بني حماد وبجاية ومراكش وتلمسان وقسنطينة، إلى جانب حواضر الأندلس الكبرى، وصقلية الإسلامية التي تعتبر جزءا من هذا الإقليم المغاربي، ومن صنعه وإبداعه" (يحي بوعزيز، 1995، ص11)، وهو الأمر الذي جعل القطر المغاربي قبلة للأندلسيين والمشارقة، حيث قام الكثير من علماء المشرق والأندلس بالرحلة إلى المدن المغاربية مثل تلمسان وفاس والقيروان وغيرها.

ولعبت الرحلات العلمية الدور البارز في حركة التطور العلمي والثقافي في هذا القطر، حيث قام العلماء والطلبة برحلات لا تعد ولا تحصى إلى المشرق قصد التعلم، إذ كلما سمعوا ببروز شيخ أو عالم في المشرق رغبوا في الرحلة بغية لقائه، فلم يكتفوا بقراءة المؤلفات التي تصلهم.

كما أسهم تشجيع الأمراء على العلم في تطوير الدرس اللغوي، فقد عرف عن الحكام الذين توالوا على حكم المغرب بتشجيع العلم والعلماء، وحث الطلبة على التعلم، "إذ ليس خافيا أن الحياة العلمية وخصوصا النواحي الأدبية منها كانت تسير في ركاب الأمراء والحكام أينما ساروا، وحيثما حلوا، فمسيرة الحياة العلمية كانت تزهو وتتقدم غالبا في ظل الأمراء والحكام الذين يشجعون العلم والعلماء والأدب والأدباء، فكانوا يحيطونهم برعايتهم وتشجيعهم وعطاياهم، وأحيانا بإيجاد روح التنافس بين الأدباء والشعراء وغيرهم وكانوا ينطلقون في هذا من حب الكثيرين منهم للعلم والأدب أولا، ولرغبتهم ثانيا في إضفاء جو من الأبهة والذكر الخالد لبلاطاتهم" (يوسف بن أحمد حوالة، 2000، ص57).

ولعل تشجيع الحكام، واهتمامهم بالعلم والأدب هو الذي جعل الحركة اللغوية في دولة "بني مرين" تعرف نشاطا كبيرا، لا يقل عن النشاط الذي عرفته العلوم الدينية، وقد استمرت هذه الحركة منذ قيام هذه الدولة إلى أن أصابها الخلل والانهيار، وبذلت في أيام عزها وعظمتها الجهود الجبارة للنهوض بمستوى اللغة، ولتبسيطها وجعلها في متناول المتعلمين

وغيرهم... وكانت المناظرات التي تعقد بين العلماء والأدباء في موضوع لغوي أو نحوي قصد التحقق من سلامة اللسان وصفائه وخلوه من التحريفات والتشوهات التي كثيرا ما تصيب اللغات بحكم امتزاج الثقافات المختلفة، فكانت تقام حول هذه المناظرات ضجات شفوية وقلمية تسترعي الأنظار، وتحرك الهمم، وتحث الناس على تتبع ذيولها ومعرفة آثارها، فيتدخلون مؤيدين أو معارضين، فيزداد النشاط، وتتنوع مظاهره، وقد وصل صدى هذه المناظرات إلى أماكن بعيدة ما كان لها أن تستفيد من هذا النشاط اللغوي لولا هذه المناظرات" (محمد بن أحمد ابن شقرون، ، 1985، ص203-204).

إن كل هذه العوامل أدت إلى انتشار اللغة العربية ورقيها في القطر المغاربي، إذ "لم يكتف أهل المغرب بمجرد التأثر والتشبع باللغة العربية فقط، ولا بمجرد الانتصاب للإقراء والتدريس والتفرغ للرواية – على أهميته - فحسب، ولكنهم انتقلوا إلى المشاركة والإسهام في إثراء علوم العربية عن طريق الغوص في استكشاف كنه وأداة التعبير تلك لغة ونحوا، حيث نقبوا في علوم العربية، واستطاعوا أن ينتجوا مادة غزيرة في اللغة والنحو والعروض، هذه المادة أسهمت في إرساء وتقنين قواعد اللغة العربية" (يوسف بن أحمد حوالة، 2000، ص 304).

وتعد الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن الثامن للهجرة بالفترة الذهبية للدراسات اللغوية المغاربية، حيث ازدهرت فيها الدراسات اللغوية والدينية، وحتى العلوم العقلية خاصة بعد سقوط بغداد، إذ أنشئت فيها الجوامع والمدارس والحواضر على امتداد كل المدن من برقة إلى طنجة، ومن بحر الروم إلى بحر براري الصحراء بأقصى الجنوب، وهي مؤسسات تعليمية ركزت الدعائم لظهور نشاطات علمية في مختلف العلوم على أسس قوية، ونبغ فيها علماء أكفاء وأدباء وفقهاء وأطباء وقضاة ورياضيون وفلكيون... فالقرنان الخامس والسادس الهجريان يعدان فجر النهضة العلمية في مختلف العلوم والمعارف في هذه البلاد، وذلك في فترة حكم المرابطين والموحدين من بعدهم، والذين لهم فضل كبير في تنمية المعارف في مختلف العلوم" (عقيلة لعشبي، 2018، ص04).

ولعل هذا النشاط العلمي الذي شهدته المنطقة هو ما جعل الكثير من العلماء المحدثين يعتبرن الدراسات اللغوية المغاربية قد نافست بقية الدراسات اللغوية المشرقية والأندلسية، ويعترفون أيضا بسبق القطر المغاربي للأندلس في هذه الدراسات، وهو ما يراه الأستاذ محمد الطنطاوي حين قال: "تجشم من الأندلس والمغرب الأسفار إلى المشرق، ورووا عن علمائه، وافتبسوا من معارفهم، إذ لم يكن في مقدورهم الرحلات إلى البوادي ومشافهة الأعراب فيها كما صنع المشارقة، وقفلوا إلى المغرب والأندلس مزودين بعلوم المشارقة، زيادة على ما جلبوا معهم من مؤلفاتهم، إلا أنه كان للمغاربة فضل السبق على الأندلسيين لقرب بلادهم من المشرق وبعد الأندلسيين منه" (محمد الطنطاوي، 1995، ص219).

أما أحمد مختار عمر فيقول: "وبعد القرن الثالث نافست أقطار ومدن أخرى البصرة والكوفة في الدراسة النحوية، وكان أشهرها بغداد ومصر والمغرب والأندلس، وظهر نحاة أعلام في كل بلد من هذه البلاد، تجد تفصيلا عنهم في كتب التراجم المختلفة" (أحمد مختار عمر، 1988، ص127).

فقد ظهر في "الأندلس والمغرب علماء ضارعوا علماء المشرق، وانتشرت دراسة النحو في سائر المدن، وبعده استغنى الأندلسيون عن المشارقة، واعتمدوا على أنفسهم، وعدلوا عن بعض آراء المشارقة في النحو، وخالفوهم في مناهج تعليمه

وتدوينه، واستدركوا عليهم مسائل فاتتهم، وبذلك استحدثوا مذهبا رابعا عرف بمذهب المغاربة أو الأندلسيين، ظهرت مبادئه في أوائل القرن الخامس الهجري الذي يعد بحق فجر النهضة النحوية في هذه البلاد" (محمد طنطاوي، ص219).

من هنا يمكن القول إن الدرس اللغوي المغاربي قد مرّ بمراحل تطورية مختلفة، كانت البداية مع دخول الفاتحين، حين قام سكان المغرب بالاحتكاك بهم وتعلم اللغة العربية قصد فهم القرآن الكريم، ثم ارتحلوا إلى المشرق لأخذ اللغة من منابعها الأصلية، وسرعان ما تطورت هذه الدراسات لتشهد مرحلة جديدة، هي مرحلة التأليف والتميّز المغاربي، ولم تكن هذه الحركة اللغوية وليدة الصدفة بل كانت وليدة عوامل كثيرة، فقد أسهمت عدة عوامل في ذلك، لعل أهمها تشجيع الحكام للعلم والعلماء، وإنشاء المراكز الثقافية، والرحلات العلمية إلى المشرق والأندلس.

2- بواكير الدرس النحوي المغاربي:

بعدما قام النحاة بالتقعيد للغة العربية انتقل النحو إلى المغرب حيث اشتغل به أبناؤه، على الرغم من أن هذا العلم دخل المغرب في مرحلة متأخرة مقارنة بغيرها من البلدان الإسلامية لانشغالهم بالعلوم الدينية التي نالت الحظ الأوفر، وقد عرفوا النحو في القرن الثاني على يد جودي بن عثمان النحوي الموروري "ت198هـ"، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي، وله مصنف بعنوان "منبه الحجارة" (جميلة راجاح، 2015، ص117). وبذلك اشتغل المغاربة في البداية بنحو الكوفيين، وقاموا بنشره، حيث توالى العلماء على دراسة النحو الكوفي، والتعليق عليه، ولقي منهم اهتماما كبيرا.

أما النحو البصري فقد تأخر المغاربة في معرفته، ومن المرجح أن معرفة المغاربة للنحو البصري تزامن مع معرفة الأندلسيين له، حيث ذكرت المصادر أن الأندلسيين تأخروا في نقله، "فيبدو أن الأندلس تأخرت في عنايتها بالنحو البصري, وأنها صبَّت عنايتها أولا على النحو الكوفي مقتدية بنحويّها الأول جودي بن عثمان، حتى إذا أصبحنا في أواخر القرن الثالث الهجري وجدنا الأفُشْنيق محمد بن موسى بن هاشم المتوفى سنة "307" يرحل إلى المشرق، ويلقى بمصر أبا جعفر الدينوري، ويأخذ عنه كتاب سيبويه رواية، ويقرؤه بقرطبة لطلابه" (جميلة راجاح، 2015، ص121).

وبعد انتقال كتاب سيبويه إلى المغرب انكب العلماء على دراسته، وشرحه، والتعليق عليه، حيث لقي منهم اهتماما كبيرا، وقد برع معلموه في طريقة إقرائه وشرحه وتبسيطه. وبهذا العمل بدأ النحو البصري في التوسع والانتشار، وظهرت نخبة من علماء المغرب الذين اهتموا به، وعكفوا على دراسته، والتوسع فيه، حيث قاموا بالتأليف والشرح، وتفردوا بآرائهم الخاصة.

وحري بالبيان أن الدرس النحوي المغاربي كان بسيطا في بداياته، حيث اكتفى المغاربة "بإعادة تقديم المادة النحوية التقليدية، فلم نجد لهم آراء نحوية تميزهم، كما لم نجدهم يعنون بوضع كتب أو شروح في النحو، ويبدو أنهم كانوا مدرسين وقراء تولوا شؤون الخطبة والقضاء" (أحمد بلشهاب، 1977، ص470). غير أنه سرعان ما بدأت الدراسات النحوية تتغير وتزدهر، إذ لم يبق النحو للتعليم والشرح فقط، فقد برز علماء مغاربة استطاعوا تأسيس الدرس اللغوي المغاربي، وإثراء الدرس اللغوي العربي ببصمة مغاربية خاصة.

فقد ظهر الكثير من النحاة المغاربة المشهورين خاصة في الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى الثامن الهجري ممن لهم قدم راسخة في علم النحو، حيث ألفوا كتبا نحوية كبيرة تنبأ عن علو قدرهم في هذا العلم، متشبعين من مختلف الاتجاهات

النحوية التي كانت سائدة في المغرب الإسلامي، فقد استطاعوا نسج درس نحوي جديد ميسر ومتين اللفظ، حصل له من الشهرة ما لم يحصل للكثير من الكتب المشرقية والأندلسية، وقد أسهمت مؤلفات المغاربة النحوية في إيجاد حركة بالمغرب متينة ومؤسسة على أسس قوية، ولعل أشهرها المقدمة الجزولية، والمقدمة الصنهاجية، والدّرة الألفية في علم العربية، والفصول الخمسون" (عقيلة لعشبي، 2018، ص166).

وتعد هذه المؤلفات من أبرز ما أنتجه نحاة المغرب الذين استطاعوا وضع بصمتهم الخاصة في التراث اللغوي العربي، ومن أهم هؤلاء النحاة:

أبو الوليد المهري: هو عبد الملك بن قَطَن المهري من نحاة الطبقة الثانية،"ت256هـ"، يعدّ من مؤسسي الدرس النحوي في المغرب العربي، حيث اشتهر بتفوقه الكبير في النحو، وقد حظي بشهرة واسعة في الساحة العلمية عامة والنحوية خاصة، وهو ما جعله مقصدا لطلاب المشرق والمغرب. وقد ذكره الزبيدي في كتاب "طبقات النحويين واللغويين"، حيث قال عنه: "شيخ أهل اللغة والعربية والنحو والرواية، ورئيسهم وعميدهم، والمقدم في عهده وزمانه عليهم. وكان من أحفظ الناس لكلام العرب وأشعارها، ووقائعها وأيامها، وكانت الأشعار المشروحة تُقرأ عليه مجردة من الشرح، فيشرحها ويفسر معانيها، فلما دخلت المشروحات نظر طلبة العربية والنحو فيها وفيما كانوا رووا عنه منها، فلم يجدوا في شرحه خلافا لما قال أصحاب الشرح، ولا وجدوا عليه في روايته وتفسيره شيئا من الخطأ. وقد لقي جماعة من العلماء المعروفين بالرواية، منهم: ابن الطرماح، وعياض بن عوانة، وأبو عبد الرحمن المقري الكوفي، وقتيبة النحوي، وكثير من الأعراب منهم أبو المنيع الأعرابي. وله كتب كثيرة ألفها، من ذلك: "كتاب في تفسير مغازي الواقدي"، وكتب تسمى "كتب الألفاظ"، وكتاب في اشتقاق الأسماء مما لا يأت به قطرب. وكان شاعرا خطيبا بليغا، وقام بخطبة بين يدي زيادة الله بن محمد بن الأغلب -وهو أمير إفريقية يومئذ- طويلة فصيحة" (محمد بن الحسن الزبيدي،ص229-230).

إبراهيم بن قطن المهري القيرواني: يعد من اللغويين الذين أسهموا في بناء الدرس اللغوي المغاربي، حيث برز في النحو والتأليف المعجمي، فكان عالما بالعربية. وبعد أن ذاع صيت أخيه الذي فاقه علما خمل ذكره، وفي هذا يقول القفطي في مؤلفه "إنباه الرواة على أنباه النحاة": "خمل ذكره بإشهار ذكر أخيه أبي الوليد عبد الملك بن قطن، وهو كان سبب طلبه للعلم، وذلك أن أبا الوليد دخل على أخيه إبراهيم، ومدّ يده إلى كتاب من كتبه ينظر فيه- ولم يكن يعلم شيئا من هذا الشأن- فجذبه إبراهيم من يده، ووبّخه بالجهل به، فغضب أبو الوليد لما قابله به أخوه إبراهيم، وأخذ في طلب العلم حتى علا عليه وعلى أهل زمانه، واشتهر ذكره، فخمل ذكر إبراهيم؛ حتى جهله الناس لشهرة أخيه " (جمال الدين أبو الحسن القفطي، 1982، ص210).

حمدون النحوي: هو أبو عبد الله حمدون بن إسماعيل؛ يعد من كبار نحاة القيروان، له إسهامات ضخمة في عملية التقعيد النحوي المغربي، وكان من الأوائل الذين حفظوا كتاب سيبويه في المغرب العربي، وقد استطاع أن ينال شهرة واسعة، فذاع صيته في جميع الأنحاء، وقد عده الزبيدي من نحاة الطبقة الثالثة، وقال عنه: "وكان مقدَّما بعد المهري في اللغة والنحو، وكان يقال: إنه أعلم بالنحو خاصة من المهري؛ لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه، وله كتب في النحو، وأوضاع في اللغة" (محمد بن الحسن الزبيدي، ص235).

عبد الله بن محمود المكفوف النحوي القيرواني: "ت 308هـ"، هو من علماء اللغة الأوائل الذين أسهموا في بناء الدرس اللغوي المغاربي، وقد برع في علوم شتى العلوم كاللغة والغريب والشعر والعروض والتفسير وأخبار العرب وغيرها، فنال شهرة واسعة، مما جعل الناس يتوافدون إليه من كل مكان، فقد "كان من أعلم خلق الله بالعربية والغريب والشعر وتفسير المشروحات وأيام العرب وأخبارها ووقائعها، وأدرك المهري وأخذ عنه، ثم صحب من بعده حمدونا ، فكان لا يبارحه، ولم يمت حمدون حتى علا المكفوف عليه، وفضل في أشياء. وله كتب كثيرة أملاها في اللغة والعربية والغريب، وله كتاب في العروض يفضله أهل العلم على سائر الكتب المؤلفة فيها؛ لما بيّن فيه وقرب، وعليه قرأ الناس المشروحات، وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية والمغرب، وكان يجلس مع حمدون في مكتبه، فربما استعار بعض الصبيان كتابا فيه شعر أو غريب أو شيء من أخبار العرب، فيقتضيه صاحبه فيه، فإذا ألح عليه أعلم بذلك أبا محمد المكفوف، فيقول له: اقرأه عليّ. فإذا فعل قال: أعده ثانية. ثم يقول: ردّه على صاحبه، ومتى شئت فتعال حتى أمليه عليك" (محمد بن الحسن الزبيدي، ص 236).

إبراهيم بن عثمان أبو القاسم القيرواني المعروف بابن الوزّان: "ت346هـ"، يعدّ من أبرز نحاة القيروان، وقد عدّ من كبار اللغويين المغاربة في القرن الرابع للهجرة، حيث أسهم بشكل فعال في رقي الدرس اللغوي المغاربي، وحفظ أمهات الكتب اللغوية مثل كتاب العين للخليل بن أحمد ، وكتاب سيبويه، وكتاب المصنّف لأبي عبيد، وإصلاح المنطق لابن السّكيت، وكتب الفراء، وغيرها من كتب اللغة، وقد شهد بعلمه علماء المشرق والمغرب، وقد قال عنه القفطي: "هو إمام الناس في النحو بذلك القطر، وكبيرهم في اللغة العربية والعروض، مع قلّة ادّعاء، وصدق لهجة، وخفض جناح، وصحّة ودّ، ونقاء صدر. وانتهى من علم النحو في حداثته إلى أن كان أبو محمد عبد الله بن محمد الأموي المكفوف؛ إذ وردت عليه مسائل من النحو سأله عنها، وطلب منه الإجابة فيها، وأقرّ له بالتقدّم في ذلك، وانتهى من اللغة والعربية إلى ما لعلّه لم يبلغ أحد قبله، وأمّا في زمانه فما يشكّ فيه. ... وكان يميل إلى قول أهل البصرة، مع علمه بقول الكوفيين، وكان يفضّل المازني فى النحو، وابن السّكيت في اللغة. قال بعض أهل الفضل هناك: ولو أن قائلا قال: إنه أعلم من المبرّد وثعلب أصدقه من وقف على علمه ونفاذه" (جمال الدين القفطي،1982، ص208).

عبد العزيز بن خلوف النحوي المغربي: هو نحوي وشاعر مغربي، عاصر ابن رشيق، عرف بنبوغه وفكره الموسوعي، فقد تمكن من النحو والشعر والقراءات. ذكره القفطي فقال عنه: "من إفريقية في أيام باديس، المستولي على إفريقية، وممن عاصر ابن رشيق وابن شرف وطبقتهما. تصدّر لإفادة هذا الشأن بمدينة القيروان، وتقدّم هناك في عصره، وله شعر... وذكره الحسن بن رشيق في كتابه فقال: «عبد العزيز بن خلوف النحوي الحروري شاعر متقن، ذو ألفاظ حسنة، ومعان متمكّنة، مثقّف نواحي الكلام رطبها، حلو مذاقه الطّبع عذبها؛ يشبّه في المنظوم والمنثور بأبي علي البصير، وله في سائر العلوم حظوظ وافرة، وحقوق ظاهرة، أغلبها عليه علم النحو والقراءات، وما تعلق بها. وفيه ذكاء يخرج عن الحدّ المحدود»"(جمال الدين أبو الحسن القفطي، 1982، ص180).

علي بن عبد الجبار بن سلامة الهذلي التونسي: "ت529هـ" هو "من أهل تونس، إمام في اللغة كامل فاضل حافظ لها. وكانت له قدرة على نظم الشعر. خرج عن بلده إلى صقلية، ولقي بها ابن رشيق الشاعر الفاضل متغرّبا عن القيروان، مقيما في كنف ابن مدكود بمدينة مازر. ورأى ابن البر اللغوي، ولم يأخذ عنه تعفّفا، لما كان عليه ابن البر من التخلّي والتبدّد في أمر دينه؛ على ما ورد في خبره. وأخذ عن أبي القاسم بن القطاع الصقلي، وقال: لم أر قط أحفظ للعربية واللغة منه. وروى

لنا عنه أبو طاهر السّلف الأصبهاني، ووصفه وذكره بالعلم في اللغة والإتقان لها. وذكر عنه أن له قصيدة في الرد على المرتد البغداذي فيها أحد عشر ألف بيت على قافية واحدة" (جمال الدين أبو الحسن القفطي، 1982، ص292-293).

عيسى بن يللبخت الجزولي المغربي: هو لغوي مغربي، "ت 607هـ"، عرف بنبوغه في سن مبكر، واستطاع منافسة أساطين الدرس اللغوي العربي، تمكن من النحو والفقه، وذاع صيته بين جهابذة النحاة شرقا وغربا، وكان له فضل عظيم في تدريس النحو في بلده، وله مؤلفات عدة لعل أشهرها "الجزولية"، وهي مقدمة موجزة صغيرة الحجم، حوت جميع أبواب النحو، وقد حظيت بعناية فائقة لاسيما في المغرب والأندلس. قال عنه القفطي: "رجل فاضل كامل ديّن خيّر، رحل من المغرب إلى المشرق وحج وعاد إلى مصر، وقرأ مذهب مالك والأصول على الفقيه أبي المنصور ظافر المالكي الأصولي. وقرأ النحو على الشيخ أبي محمد عبد الله بن بري النحوي المصري الدار، إمام وقته، ولما قرأ عليه كتاب الجمل للزجّاجي سأله عن مسائل على أبواب الكتاب، فأجابه عنها، وجرى بحث فيها بين الطلبة، أنتج قولة علقها الجزولي مفردة، فجاءت كالمقدّمة، فيها كلام غامض، وعقود لطيفة، وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة. ولما عاد إلى المغرب نقلها الناس عنه، واستفادوا منه" (جمال الدين أبو الحسن القفطي، 1982، ص378-379).

ومن القواعد النحوية المعروفة في النحو المغربي والأندلسي" (محمد الطنطاوي، 1995، ص223-224):

- منع توكيد العائد المحذوف قياسا.
- تجويزهم تأخير حال الفاضل عن اسم التفضيل.
- اعتبارهم نصب (غير) في الاستثناء كنصب المستثنى بإلا.
- جواز العطف في تمييز المقدار المكون من الجنسين.
- عدم اعتبار العطف ل(أم) المنقطعة مطلقا.
- تصحيحهم عمل (أن) المخففة المفتوحة في الظاهر أيضا.
- تسويغهم نصب المضارع بعد الفاء في جواب الاستفهام المتضمن وقوع الفعل، مخالفين اشتراط النحاة عدم الوقوع.

3- بواكير الدرس المعجمي المغاربي:

تعود بدايات التأليف المعجمي المغاربي إلى اللغوي عبد الملك المهري القيرواني "253هـ"، وأخيه إبراهيم المهري الذي ألف "كتاب الألفاظ"، وبذلك فقد عرف المغاربة علم المعاجم واهتموا به في وقت مبكر، ولعل ذلك يعود إلى احتكاكهم بعلماء الأندلس.

وقد اشتهر علماء المغرب بالمعاجم المتخصصة، فمنذ بداية "منتصف النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة حتى نهاية القرن الثامن ألف في تونس ثمانية معاجم كلها متخصصة في الأدوية المفردة، وهي: كتاب "الأدوية المفردة" لإسحاق بن عمران "ت279هـ"، الذي ألفه في القيروان، وكتاب "الأغذية" لإسحاق بن سليمان "ت. بعد 341هـ"، و"كتاب التلخيص في الأدوية المفردة" لدونش بن تميم "ت 360هـ"، وكتاب "الاعتماد في الأدوية المفردة" لأبي جعفر بن الجزار "369هـ"، وكتاب "الأدوية المفردة" لأبي الصلت بن أمية بن عبد العزيز "ت529هـ"، وسادسها كتاب "مفيد العلوم ومبيد الهموم" لأبي جعفر أحمد بن

الحشاء، وهو من علماء النصف الأول من القرن السابع للهجرة، والمعجم في تفسير المصطلحات الطبية المذكورة في كتاب "المنصوري في الطب" لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي "ت 313هـ""(إبراهيم بن مراد، 1987، ص11- 12).

ويعد كتاب "الأدوية المفردة" لإسحاق بن عمران أول معجم علمي مختص يؤلف في اللغة العربية، وقد تأثر به الذين ألفوا من بعده –سواء في بلد المغرب أو خارجها- غير أن كتابه اليوم مفقود، ولم يبق لنا منه إلا شواهد أخذها عنه أبو جعفر أحمد الغافقي في كتابه: "الأدوية المفردة"، وأبو محمد البيطار في كتابه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية". وتبرز أهمية معجمه أكثر في ذكره أدوية نباتية جديدة، لم يكن لليونانيين بها سبق معرفة، لذلك يعتبر هذا المعجم إسهاما حقيقيا في إثراء المعجم العربي" (إبراهيم بن مراد، ، 1987، ص 13).

أما كتاب الاعتماد لأبي جعفر بن الجزار فهو ثاني معجم في الأدوية المفردة يؤلف في اللغة العربية بعد كتاب إسحاق بن عمران، وقد نهج طريقة صعبة تدل على مدى خبرة ابن الجزار بمعرفة قوى الأدوية وطبائعها وقواها، واتباعه هذه الطريقة يدل على أن الكتاب موجه إلى جمهور خاص، هو جمهور الأطباء والصيادلة. وقد قسم كتابه إلى أربع مقالات تقسيما يراعي درجات الأدوية وقواها، إلا أنه فصل فصلا كليا بين الأدوية الحارة والأدوية الباردة في كل مقالة" (إبراهيم بن مراد، 1987، ص16).

وبرز في حقل التأليف المعجمي أيضا العلامة "إبراهيم بن إسماعيل الطرابلسي اللغوي المغربي المعروف بابن الأجدابي من أهل اللغة، وممن تصدّر في بلده، واشتهر بالعلم، وكانت له يد جيدة في اللغة وتحقيقها وإفادتها، وهو متأخر، وصنّف في اللغة مقدّمة لطيفة، سماها "كفاية المتحفّظ"، يشتغل بها الناس في الغرب ومصر.

ويتوزع مؤلفه إلى عدة أبواب، فباب في صفات الرجال المحمودة، ويتلوه بصفات الرجال المذمومة، وباب في صفات النساء المحمودة، ويتلوه بالمذموم من صفاتهن، وباب في خلق الإنسان، وباب في الخيل، وباب في السلاح وباب في السباع والوحش، وباب في الطير، إلى غير ذلك من أبواب كثيرة. وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في العالم العربي شرقا وغربا، وعكف عليه غير عالم يشرحه، أو ينظمه شعرا ليسهل على الطلاب حفظ ما فيه" (شوقي ضيف، ص 68-69).

وقد نال هذا الكتاب شهرة عظيمة برغم صغر حجمه، وتوالت عليه المؤلفات شرحا ونظما، وبقيت منه نسخ عدة في كثير من مكتبات العالم، كما أنه طبع أكثر من مرة في أكثر من بلد عربي، أما موضوعه فنترك الحديث عنه لابن الأجدابي نفسه الذي يقول: "هذا كتاب مختصر في اللغة وما يحتاج إليه من غريب الكلام، أودعناه كثيرا من الأسماء والصفات، وجنبناه حوشي الألفاظ واللغات، وأعريناه عن الشواهد ليسهل حفظه ويقرب تناوله، وجعلناه مغنيا لمن اقتصر في هذا الفن، ومعينا لمن أراد الاتساع فيه، وصنفناه أبوابا"(أحمد مختار عمر، 2003، ص292-293).

وليس أدل على قيمة هذا الكتاب من احتفال العلماء به، واهتمامهم بكتابة الشروح والتعليقات عليه فمن ذلك شرح محمد بن الطيب المغربي الفاسي "المتوفي سنة 1170 هـ" المسمى "تحرير الرواية في تقرير الكفاية"، وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحمل رقم: 14 لغة ش1، وقد بدأ ابن الطيب الفاسي كتابه بقوله: "يا من المتحفظ بذكره كاف عن كفاية المتحفظ، والتلفظ بشكره إلى بدايته تنتهي نهاية المتلفظ". وذكر أنه رمى من وراء تأليفه إلى ضبط كلمات الكفاية وشرح غريبها، وأنه لم يؤلف كتابه إلا بعد ما سألنيه جماعة من الأصحاب الجهابذة الذين تكررت قراءتهم إياه كغيره على طائفة من الشيوخ والأساتذة الذين كانوا يستندون في أمثاله من العلوم اللسانية" (أحمد مختار عمر، 2003، ص292-293).

وبذلك فإن صناعة المعاجم قد حظيت باهتمام كبير من قبل علماء المغرب، وقد كان لهم فضل السبق في المعاجم المتخصصة التي كان أغلبها مخصصا للأدوية، ما يعني أن هذه المعاجم قد تكون موجه لجمهور خاص لا لعامة الناس.

خاتمة:

كان الدرس اللغوي المغاربي بسيطا في بداياته، حيث اكتفى المغاربة بإعادة تقديم المادة اللغوية التقليدية، غير أنه سرعان ما بدأت هذه الدراسات تتغير وتزدهر. وقد أسهمت مجموعة من العوامل في بروزه وازدهاره، لعل أهمها احتكاك المغاربة بالعرب الفاتحين، وإنشاء المراكز الثقافية، والرحلة إلى المشرق، وكذلك تشجيع الحكام للعلم والعلماء. وكانت بعض مدن المغرب العربي كالقيروان وبجاية وفاس مقصدا للعلماء والطلبة من المشرق والمغرب، وهو ما ولد حركة علمية واسعة في المنطقة. وقد عرف المغرب العربي في هذه الفترة علماء استطاعوا وضع أسس الدرس اللغوي بطابع مغاربي، له سماته الخاصة التي تميزه عن غيره. واستطاعوا منافسة أساطين الدرس اللغوي في المشرق العربي، على الرغم من ضياع الكثير من المؤلفات اللغوية المغاربية بسبب الحروب والفتن، فلم يصلنا منها إلا القليل، ولهذا السبب نجهل الكثير عما قدمه المغاربة في اللغة.

ومن المفيد أخيرا أن نعلم أن الدرس اللغوي المغاربي في حاجة إلى بحث ودراسة دقيقة وتفصيلية؛ لأنه لا يزال حقلا معرفيا بكرا، لم يحظ بما حظي به الدرس اللغوي المشرقي والدرس اللغوي الأندلسي.

قائمة المراجع:

1- بلشهاب، أحمد ،1977، تطور الدراسات النحوية في المغرب حتى القرن الثامن الهجري، الرباط، دار المناهل.

2- بوعزيز، يحي،1995، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

3- حوالة، يوسف بن أحمد، 2000، الحياة العلمية في إفريقيا "المغرب الأدنى" منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري.

4- الزبيدي، محمد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين، ط2، القاهرة، دار المعارف.

5- ابن شقرون، محمد بن أحمد، 1985، مظاهر الثقافة المغربية دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، الدار البيضاء، المغرب، دار الثقافة.

6- شوقي، أحمد، 1990، من المصادر الأدبية واللغوية، بيروت، دار العلوم العربية.

7- ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات "ليبيا- تونس- صقلية"، القاهرة، دار المعارف.

8- الطنطاوي، محمد، 1995، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة.

9- عبد الجواد، إبراهيم رجب، 2004، معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية.

10- عمر، أحمد مختار، 1988، البحث اللغوي عند العرب، ط6، القاهرة.

11- القفطي، جمال الدين أبو الحسن، 1982، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ط1، القاهرة، دار الفكر العربي.

12- بن مراد، إبراهيم ، 1987، دراسات في المعجم العربي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

الأطروحات:

1- راجاح، جميلة، 2015، إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدرس النحوي، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، الجزائر.

2- لعشبي، عقيلة، 2018، المدرسة النحوية المغاربية من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، الجزائر.